الفصل الثالث عشر:

انطلقنا من باسوفان في الساعة الثامنة من صباح الرابع من نيسان راكبين جنوباً عبر مسالك حجرية وعرة على نحو لا يصدق، جاعلين قلعة سمعان إلى الغرب ملتفين حول الحواف الشرقية لجبل الشيخ بركة. وصرح موسى بأنه سوف يرافقنا في الجزء الأول من طريقنا حتى قرية ديرة عزة وهي قرية محمدية تتكون من ثلاثمئة إلى أربعمئة بيت، وتركنا في هذا المكان.

وقد انحدرنا من هناك إلى سهل سرمدا الخصيب ملتفين حول منحدرات جبل حلقة. وفي منتصف النهار مررنا بقرية دانا الكبيرة، وتغدينا عند قبر القرن الثالث الميلادي الشهير الذي تحدث عنه في كتابه دوفوج، وهو من وجهة نظري من أجمل النُّصُب الصغيرة الباقية في شمالي سوريا، وهو يثمن ببساطته الرائعة بكل جدارة إلى جانب نصب قائد الكورس ليزيكراتس في أثينا، ولم يكن ثمة ما يحتجزنا غيره في دانا.

وكنت قد أرسلتُ المتاع مع ميخائيل طالبة منه أن نلتقي بداحس، حيث أكون ونجيب بانتظارهم، وكان ميخائيل بصحبة دليل من المنطقة، وبعد مناقشة حدثت بين نجيب والدليل حول المنطقة التي نحن فيها التي كنت أعرفها من خلال كلام الرحالة فحسب، اكتشفنا بعد الوصول إليها أن المكان الذي نحن فيه هو ماحس وليس داحس، والأمر سيان على أي حال مادمنا قد التقينا ووجدنا مكاناً ملائماً للتخييم. وقد أخذني نجيب شمالاً على طول

الطريق الروماني بقرب قوس نصر روماني يطلق عليه اسم باب الهوى وهو واقع على نحو رائع في مدخل واد صخري، ومشينا على طول هذا الوادي لميل أو ميلين مارين بكنيسة مهدمة، ضاربين عبر التلال إلى الغرب من خلال خانق قادنا إلى نجد واسع قريب من قرية مهجورة تدعى قصيجبة(*)، ثم تابعنا المسير إلى قرية بابيسكا عبر منطقة موشاة بالزهور وبمجموعات من المنازل المهدمة والكنائس، ويقفز القلب من مكانه أمام منظر هذا الجمال الزائل المهجور. ومن الصعب أن نحدد موقع باقرحا من خلال قمم هذه التلال، وهي البلدة التي أرغب بزيارتها. ولكننا وجدنا قرب بابيسكا خيمتي رعيان، وقد سألنا بعض القاطنين فيهما عن الطريق، كان الراعي سوداوي المزاج.

وقد قال: إنه ليس هناك طريق إلى باقرحا، وإن النهار قارب على النهاية لمثل هذه المغامرة، وإن طريقه باتجاه معاكس. وهو يحمل سلة بيض ولا يستطيع مساعدتنا. وأنا لم أقطع على أي حال هذه الأميال الكثيرة حتى أقبل بالهزيمة في النهاية، وهكذا ومن خلال بعض الإغراءات، والقدرة الجيدة على الإقناع استطعنا أن نحث الراعي على أن يرينا الطريق حتى سفح الهضبة التي تقع عليها باقرحا، ومشى معنا ساعة أو حولها، ثم أشار باتجاه قمة جبل باريشا قائلاً: «تلك هي باقرحا»، ثم تركنا فوراً عائداً إلى حيث ترك سلة بيضه.

وفي أعلى قمة الجبل شاهدنا الخربة تسبح في شمس العصر، وبعد أن بحثنا عبثاً عن طريق اندفعنا بخيولنا مباشرة بين جلاميد الصخور وأجمات الأشواك المزهرة، ولكن ثمة حدوداً للتَحمُّل حتى لدى الخيول السورية، وقد وصلت خيولنا إلى هذه الحدود بعد سير يوم طويل من تسلق الصخور. وكنا لا نزال بعيدين عن المخيم، والسماء وحدها تعلم بُعْده، ولم ترتفع عيناي عن الأسوار اللامعة تحت ضوء الشمس والتي كانت قريبة جداً فوقنا على

(*) لقد زارت البعثة الأثرية الأمريكية المدن القديمة في جبل باريشا ووصفتها بعد ذلك. (المؤلفة)

الهضبة، وطلبت من نجيب المعارض أن يبقى حيث هو في الأسفل مع الخيول، وصعدت التل على القدمين وحيدة، كان النهار قد شارف على النهاية، وتسلقت بسرعة، ولكن ومع كل سرعتي فإن الزحف فوق هذه المنحدرات الصخرية

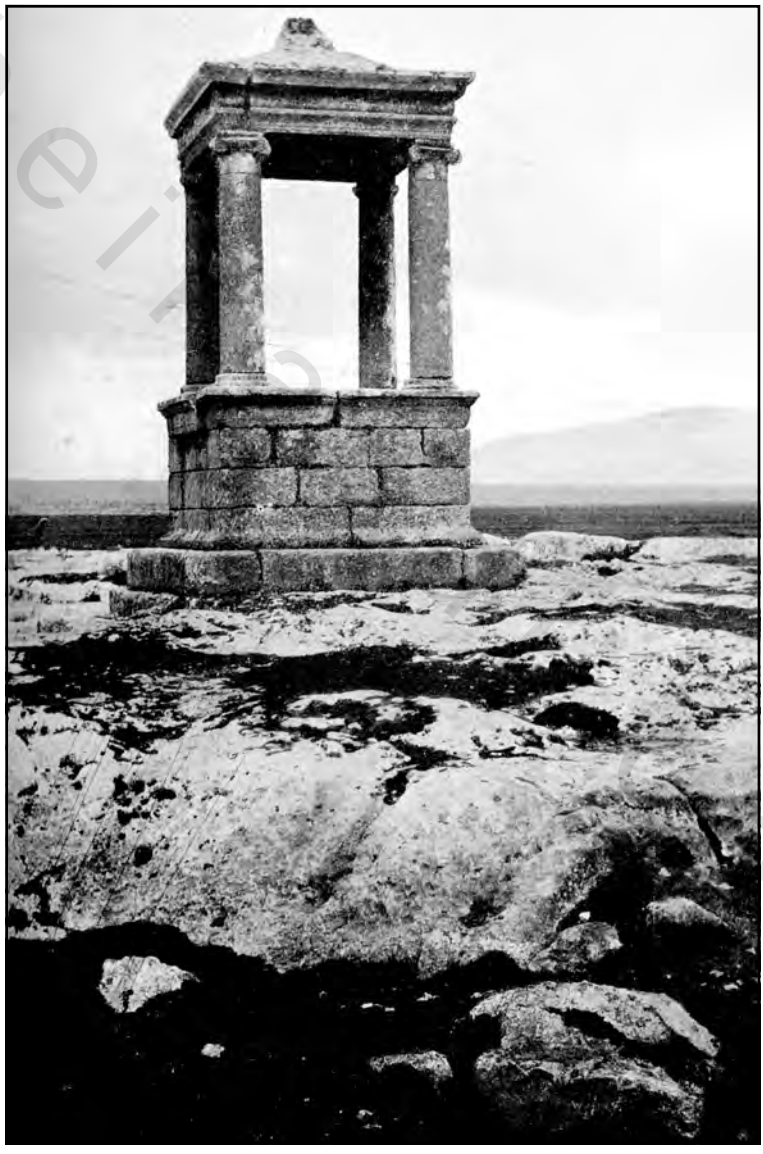

١٤٢ ـ قبر في دانا

نصف المدفونة تحت الزهور والساخنة بسبب أشعة الشمس الساقطة عليها أمر لا يمكن محوه من الذاكرة بسهولة، وبعد نصف ساعة كنت أقف في مدخل البلدة تحت باسيليقا رائعة غنية بزخارف وخطوط جميلة ومتنوعة، وإلى الخلف منها الشوارع المهدمة، الخالية من السكان، تضطجع على طول حافة الجبل، منازل بشرفات مزخرفة وبوابات بأروقة عميقة مسقوفة، ومحلات تجارية معمدة تجللها جميعاً أشعة الشمس الذهبية، ولكني كنت معنية بالحج إلى مكان آخر، طريق عريض ملتو يقود إلى أعلى البلدة حتى يصل إلى حدود المنحدرات المزهرة ولا شيء آخر إلا الوجه الصخري القصير لهضبة تقع بين الأرض المكشوفة حيث ينتهي الممر وقمة السلسلة الجبلية.

وكان الجبل قد شق هذا الطريق، وعبر ممر ضيق شديد الانحدار، محصور بين مواقع جروف السهل الخصيب المشمَّس، وعند قمة الممر الضيق، وعلى رف ضيق من الأرض يقع معبد رائع صغير. وجلست بجانب البوابة التي كان يمر عبرها العابدون الداخلون إلى ساحة المعبد، وكانت تقع تحتي منحدرات جبل باريشا الشمالية والوديان الجميلة العريضة، والعباءة الثلجية التي تكلل جبل كيوار داغ المغطى بغيمة دافئة.

والمعبد والمدينة وجوانب الهضبة كانت جميعاً مهجورة فيما عدا راع صغير كان يجلس على إحدى القمم الصخرية البعيدة يعزف بقصبته لحناً جميلاً لقطيعه المتفرق بين الصخور، كان لحن القصبة يعكس العزلة الشديدة، واضحاً يهز المشاعر ويصعد بهدوء عبر بوابة المعبد محمولاً على أمواج عميقة من هواء الجبل المعطر بأريج الزهور وملون بأشعة الشمس المشرفة على الغروب.

الناس تأتي وتذهب والحياة طالما اصطخبت على منحدرات التلال ثم تراجعت مرة أخرى تاركة الآلهة القديمة تستأنف سيطرتها فوق الصخور والأشواك المزهرة بسلام ووحدة وجمال. وهكذا وعلى أبواب الحرم المقدس قدمت صلواتي، وسارت تسبيحاتي على طريقي المفعم بالفرح.

واستقبل نجيب عودتي بتعابير تعكس الارتياح الشديد.

قال: «بالله لم أدخن أي سيجارة منذ غبتِ عن ناظري، وكنت خلال هذه الساعة أقول: أرجو الله أن لا تقابل لصاً بين الصخور».

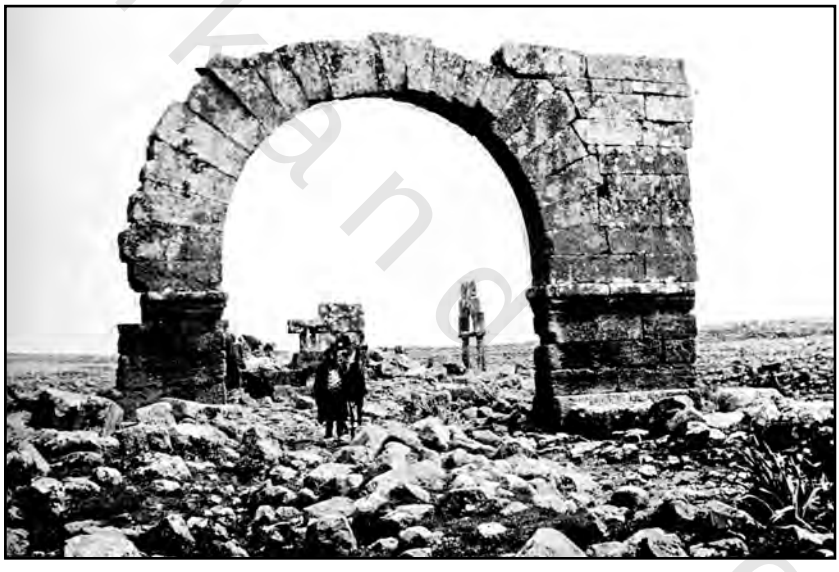

١٤٣ ـ باب الهوى

وهكذا ومن أجل التعويض عن الفرصة الضائعة أشعل السيجارة التي لم يمنعه قلقه من لفها أثناء غيابي، وهكذا أنا لا أستطيع أن أجزم أنها الوحيدة في الواقع، ولكن الشعور كان مُرضياً. وفكرت في ذلك الوقت «ولكن مسيرة اليوم التالي برهنت أنني كنت على خطأ». إننا عندما ركبنا نازلين إلى سهل

سرمدا كنا نسير عبر أكثر الطرق وعورة في العالم، وعندما وصلنا إلى سفح الجبل انعطفنا صاعدين وادياً إلى الجنوب. شريط ملتو من الأرض المفلوحة بين سلاسل من الصخور، وسرعان ما اتسع ومررنا بقرية حديثة كبيرة، حيث سمعنا هناك أنباء مفرحة بأن مخيمنا قد شوهد أمامنا، وفي الساعة السادسة والربع كنا في ماحس أو داحس، أياً كان اسمها، شاعرين أن خيولنا سوف تموت إذا طلبنا منها أن تسير ميلاً آخر.

وكانت ماحس مكاناً رائعاً للتخييم، ولم يكن بالمستطاع دائماً التخييم بعيداً عن السكان. كان البغالة يتوقون توقاً شديداً للّبَن الخاثر الحامض، وغير ذلك من المنتجات الحضارية المترفة، كما أنني افتقدت اللبن أيضاً ولكن سحر المخيم المنعزل عوضني عما افتقدت. كان الليل ساكناً وصافياً وأوينا إلى صحن كنيسة مخرب، ونمنا نوماً مباركاً بعد ذاك الركوب الطويل.

١٤٤ ـ بوابة المعبد في باريشا

كانت هناك خربة أخرى كنتُ قد قررت زيارتها قبل أن أبرح الهضاب. كانت كنيسة قلب لوزة التي تبدو من الأوصاف التي وصفت بها البناء الأجمل (وهي فعلاً كذلك) بعد قلعة سمعان في كل شمال سوريا.

أرسلت حيوانات المتاع لتلتف عبر الوديان بتعليمات دقيقة، ولكن إعطاء الأوامر إلى فريز بأن لا يضيع الوقت ليس له فائدة. وانطلقنا أنا وميخائيل ونجيب عابرين على نحو مستعرض سلسلتين جبليتين هما جبل باريشا وجبل العلا. من الأفضل عادة تسلق الصخور على القدمين، ولكن أي إنسان يعرف قوة الحصان الرياضية ومرونته سوف يركب عبر جبل العلا إلى قلب لوزة.

لقد كنت أظن نفسي متضلعة على نحو مقبول بالموضوع، ولكني اكتشفت أن البعثة قد وسعت تجربتي إلى حد ليس بقليل، لقد ركبنا على خط مستقيم عبر هضبة صخرية غير محمولة إلى الغرب من ماحس حتى وصلنا إلى قمة جبل باريشا، كانت الأرض هنا مقطعة بالصخور، ولكن بين هذه الصخور ثمة أجمات زيتون صغيرة ومثلها من الكروم وحقول الذرة مبعثرة جميعاً هنا وهناك، كانت الزهور البرية تملأ كل زاوية وحفرة، فالسوسن الأزرق قد نشر براعمه الملونة تحت أكاليل كثيفة حلوة الرائحة. والهواء مشبع برائحة شجر الغار الأرجواني.

كان يسكن هذه الجنة فلاح مكفهر الوجه هو الأقل لطفاً وكلاماً بين بني البشر. وبعد مساومة شديدة غير ناجحة وضع ثمناً عالياً جداً لأي خدمة سوف يقدمها لنا، وقد كنا في قبضته وأجبرنا على الخضوع لشروطه. وافق أن يقودنا إلى قلب لوزة. هبط بنا جبل باريشا فوراً عبر ممر منحدر جداً قد شق بين الصخور، كان الطريق منحدراً جداً وضيقاً إلى درجة أننا وجدنا

صعوبة بأن نتنحى على جانبه لنفسح المرور لمجموعة من النساء كن يحملن حزماً من أغصان الغار. وفي قاع عنق الزجاجة المنحدر هذا ثمة واد عميق توجد بحيرة في إحدى نهايته.

وقد ارتفع فوقنا جبل العلا المكون من جدار من الصخور من المستحيل من وجهة نظري على الخيول أن تتسلقه، وأشار دليلنا الفلاح، واحد زمانه ـ وأنا سعيدة بعدم تذكري اسمه ـ بأن طريقنا يمر عبره، وأذعن نجيب وتبعته أنا بقلب هابط، كان الأمر لا يمكن وصفه، قفزنا وسقطنا على الصخور، وقفزتْ حيواناتنا وتعثرتْ مثلنا زاحفة على حافة جروف ضيقة حيث إذا سقطتْ من فوقها تكسرت كل عظامها عظمة عظمة. ورعتنا العناية الإلهية ووصلنا إلى منطقة جميلة مثل تلك التي تركناها على قمة جبل باريشا.

وعند مدخل بستان من الزيتون رجع دليلنا، وخلال دقائق قليلة وصلنا إلى قلب لوزة، لا أعرف فيما إذا كان هناك كثير من السكان المستوطنين حول كنيسة قلب لوزة فيما مضى من الزمان، فالآن لم يبق إلا القليل من المنازل التي تقف وحيدة تقريباً، وهي تقف بدون منافس تقريباً بين فنون الزخرفة السورية؛ الفسحات العريضة بين أعمدة الصحن، الواجهة البارزة مزينة بالأعمدة المعشقة، جمال الزخرفات التي لا تجارى ودقة النسب الملحوظة في كل جزء هي الملامح العامة التي تلفت نظر الملاحظ.

ولكن عندما يمعن النظر فسوف يعرف أن هذه ليست الكلمة الأخيرة في تاريخ فن البناء السوري التي تقال بعد عدة قرون من الممارسة، ولكنها هي أيضاً بداية فصل جديد من تطور فن البناء في العالم، إن الفن الروماني الجميل والبسيط قد ولد في سوريا، وقد يكون من الفضول أن نقدر التطورات

التي كان يمكن أن تصل إليها عبقرية هؤلاء المهندسين لو لم يوقفها الاجتياح العربي[1]، من المؤكد أننا أمام مدرسة مستقلة لبنّائين عظام ربما يكونون قد تأثروا بقوة بأنماط فنون البناء التقليدية، وربما على نحو أكثر من الشرق، ولكن في كل مكان نلاحظ تأكيدات لخصائص لا تخطئها العين، شجاعة مثلما هي واسعة الخيال ومرهفة، وثمة تعزية صغيرة في الفكرة القائلة إن قوة الخلق أو الإبداع الواضحة في آثار قلب لوزة لم تجد أبداً الوقت للولوج في مرحلة التدهور.

كنت قد سمعت أو قرأت أن ثمة بعض القرى الدرزية القليلة العدد تقطن في الجبال الغربية من قلب لوزة، وقد سكنتُ في هذه المنطقة بعد أن هاجرت من لبنان، وحيث إنني لم أثق بهم فقد نسيت وجودهم تقريباً.

كان ثمة نصف دزينة من القبب قرب الكنيسة، وقد خرج سكانها من بيتهم لمشاهدتي وأنا أصور، لقد لفت نظري ـ ربما بدون وعي تقريباً ـ نظرة بدت معروفة جيداً من العيون المكحلة بالكحل الأسود، وسلوك مألوف على نمط معين قد يكون من الصعب تحديده ليصوغ ترابطه انطباعاً من اليسر والإلفة الصدوقة ممزوجة ربما بلمسة من المناصرة.

وعندما التحقت النسوة بجمع المتفرجين الصغير لفت نظري السلاسل الفضية والمشابك اللواتي يضعنها التي ذكرتني على نحو مبهم بأنني رأيت مثلها في مكان آخر.

(١) تريد المؤلفة دائماً أن تُشعِر القارئ أن الفتح العربي لبلاد الشام كان بمثابة كارثة حضارية، إن وجود الأوابد الإسلامية في كل مكان من العالم العربي وفي إسبانيا والبرتغال وعظمة الفن المعماري المطبق فيه يدحض أقوال المؤلفة. (المترجم)

وبينما كنا نتهيأ للذهاب تقدم منا رجل مسن، وعرض أن يسير معنا لمدة ساعة قائلاً بأن الطريق الهابط إلى حارم ليس من السهل التعرف إليه. ولم نكن قد سرنا سوياً أكثر من خمسين يرداً حتى عرفت معنى إدراكي في اللاوعي.

١٤٥ ـ قلب لوزة

قلت: «ما شاء الله، أنتم دروز».

وتلفت الرجل حوله بقلق نحو نجيب وميخائيل اللذين كانا يمشيان قريباً في أعقابنا، وأحنى رأسه وسار بدون أن ينبس.

قلت: «لا تخف، الجندي وخادمي كَتُومان».

فسكن روعه وقال: «نحن قلة في هذه الجبال، ونحن نخشى المحمديين، ونخفي عنهم أننا دروز، وإلا فإنهم سوف يطردوننا من المنطقة. نحن لسنا أكثر من مئتي بيت هنا».

قلت: «كنت آمل أن أعثر عليكم، لقد تعرفت على المشايخ في حوران، وقد رأيت الكثير من لطفهم، ولذلك فأنا أريد أن أحيي كل الدروز حيثما قابلتهم».

قال: «الله، هل تعرفت على الطرشان؟»

قلت: «بالله!».

«شبلي وأخوه يحيى؟»

«لقد تعرفت على يحيى أما شبلي فقد مات»

صرخ «مات! يا الله شبلي مات!».

وبنفس الأسلوب انتزع مني كل أخبار الجبل، وأصغى باهتمام خفي لكل الحكايا التي لم أفكر أن أجد أذناً تريد السماع بعيداً عن صلخد. وفجأة توقف عن إلقاء الأسئلة وابتعد عن الطريق باتجاه كرم عنب، كان فيه شاب يقلم أشجاره.

صرخ «آهٍ يا ولدي، شبلي الأطرش مات، أعرني حذاءك؛ لأنني قد أسير مع السيدة، إلى حارم، لأن حذائي ممزق».

وأتى الشاب واقترب منا وهو يخلع حذاءه ذا الوجه الأحمر.

قال: «إنا لله، لقد شاهدت شبلي منذ سنة فحسب»

ورويتُ له الأخبار بالتفصيل.

وسرنا على طول قمم الجبل الصخرية مندفعين عبر أزهار الغار الأرجوانية التي نمت على نحو رائع وغزير، ونتحدث بينما كنا نسير كما لو كنا صديقين قديمين لم يشاهدا بعضهما منذ وقت طويل. وعندما وصلنا إلى قمم

obeikandl.com

جبل العلا ونظرنا إلى حارم وهي ممتدة تحتنا أصررتُ على رفيقي أن يوفر على نفسه مشقة السير مسافة أبعد، ووافق بعد معارضة شديدة على العودة، ووقف يمطرني بالدعوات المباركة لمدة خمس دقائق قبل أن يقول لي مع السلامة، ثم التفت نحونا مرة ثانية ليتأكد من أننا نسير في الطريق الصحيح.

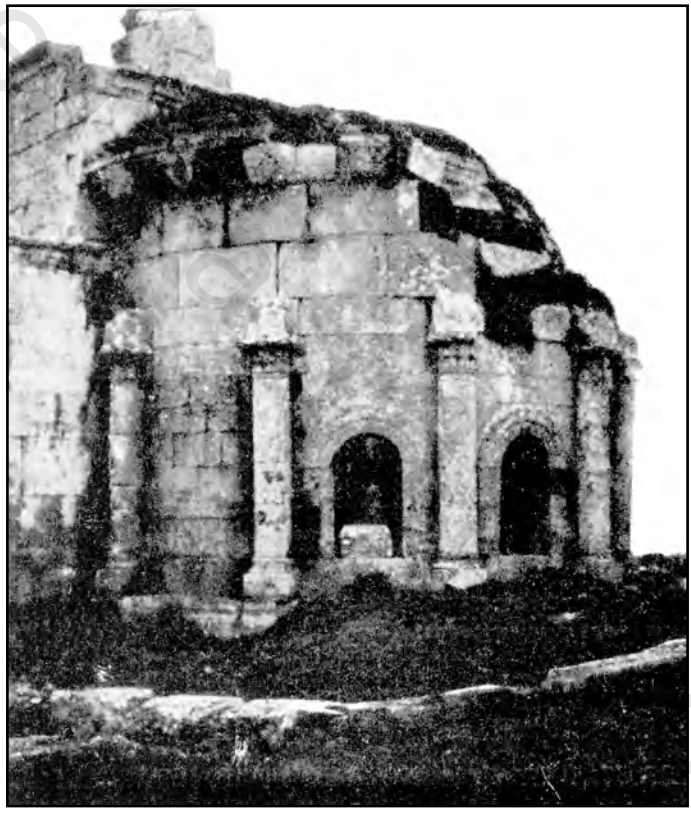

١٤٦ ـ الواجهة البارزة في قلب لوزة

قال: «عندما تأتين في المرة القادمة إلى جبل العلا يجب أن تأتي بمخيمك إلى قلب لوزة، وتقيمي شهراً على الأقل، وسوف نقدم لك كل ما تحتاجينه

ونريك كل الخرب، والآن نرجو الله أن تسافري بسلامة وأمان، وأن تعودي بالسلامة والصحة في السنة القادمة.».

قلت: «ليطيل الله عمرك ويسلمك».

وافترقنا وقد تدفأ قلبي بالحب لشعبه الذي ليس من الصعب أبداً أن يجيش به. قد يكونون قساة في الحرب، والدليل ضدهم في هذا المجال ساحق، والبعض يؤكد أنهم غدارون، وآخرون يرونهم طماعين، ولكنني عندما أرى درزياً لا أتردد أبداً بأن أحييه كصديق، ولن تتغير ثقتي بهم حتى يثبت لي ما يؤكد العكس.

يقع حصن حارم على تل في مدخل خانق منخفض يشكل مدخلاً لجبل العلا، وإلى الخلف منها يقع سهل العاصي العظيم، وقسم كبير من السهل الشمالي واقع تحت الماء، والمستنقع الذي يطلق عليه السوريون اسم البحرة قد امتد حتى أقصاه بسبب الأمطار الأخيرة. وانعطفنا من حارم باتجاه الجنوب سائرين على طول سفوح منحدرات جبل العلا إلى سلقين، وهي مسيرة لا تنسى؛ بسبب الجمال الفائق للأرض التي مررنا بها، والتي لم أشاهد ما يعادلها خصباً في جميع أنحاء سوريا.

وقد تقاسمت كروم الزيتون واللوز الأرض الخصبة مع الشعير والشوفان، وتشابكت على حواف الطريق على نحو كثيف نباتات الوزال والرتم والغار والعليق، وتحت كل بقعة مشمسة كنت ترى أعواد السوسن الأزرق.

وتقع سلقين نفسها في واد كثير الأشجار بين أعداد لا حصر لها من شجر الزيتون الذي يمتد عدة أميال حتى طرف العاصي تقريباً.

وترجلنا عن خيولنا قبل أن نصل إلى البلدة في بقعة مكشوفة بين حدائق الزيتون، كانت الساعة حوالي الخامسة، ولكن فريز لم يكن قد وصل بعد. ورتبنا وضعنا على نحو مريح تحت الأشجار بانتظاره. وأثار مجيئُنا بعض الإثارة بين السكان الذين كانوا يجلسون على العشب يتمتعون بالمساء الهادئ.

وبعد قليل جاء رجل ـ كان في الواضح يتمتع باعتبار خاص ـ مسرعاً نحونا، وكان بصحبته خادم، وقد دعاني للاستراحة في منزله، كان رجلاً مهيباً، ومع أنه كان في منتصف العمر فإن محياه كان مريحاً، وقد قبلتُ دعوته ظانّة أنه يمكن بوساطته أن أتعرف على سلقين أكثر.

يجب أن تتمسك دائماً بالفرص التي تتيح لك توسيع دائرة معارفك وبشكل خاص في البلاد الأجنبية.

اكتشفت سريعاً أنني وقعت في قبضة أغنى رجل في البلدة، وهو محمد علي آغا بن رستم آغا، شركسي الأصل، الذي كان خادماً عند عائلة كيخيا زاده الهمدانية الشركسية الشهيرة. (هكذا ينطق الاسم في اللغة العربية، أما في الفارسية فينطق كتخدا زاده). وقد هاجرتْ أسرة كيخيا زاده إلى حلب منذ قرنين، وبوساطة المعاملات التجارية والإجراءات المألوفة عند الشراكسة أصبحوا أغنياء جداً، وهم الآن من أقوى الأسر الحلبية.

وقد شاركهم خدمهم بالنجاح، واستطاع رستم آغا بحرصه أن يوفر مقداراً مناسباً من المال لشراء أرض في سلقين بجوار أراضي سادته في وادي العاصي، وخدمه الحظ إذ زوج ابنه من إحدى بنات الكيخيا، ولم أعلم كل هذه التفاصيل فوراً. وقد دهشتُ عندما كنت أزور حريم محمد علي عندما لاحظت المعاملة الخاصة المختلفة التي يعامل بها زوجته، متعجبة ومتسائلة

لماذا تُعامل هذه السيدة الصغيرة الحادة الملامح، البراقة العينين، التي لم تنجب لزوجها ذكوراً، من قِبَل زوجها بمثل هذا الاحترام، لأنني لم أكن أعرف آنئذن أنها أخت رشيد آغا كيخيا زاده. ليس لمحمد علي سوى بنت واحدة في السادسة من عمرها، ورغم أنها من جنس غير مفيد فإنها قرة عين أبيها.

وحدثني طويلاً عن تعليمها وإمكاناتها بينما كنت آكل أفضل أنواع الزيتون، ومربى الكرز الذي وضعتْه مدبرة المنزل أمامي، وتواضعتْ الخانم جداً فصنعت القهوة بيديها، وعبرت عن إعجابها بقبعة اللباد البالية المرمية بجانبي على الأريكة والمغطاة نسبياً بقماشها الأرجواني والفضي.

قالت: «إيه.. القبعة الأوربية الجميلة! أتضعين فوقها منديلاً بينما هي جميلة جداً هكذا؟».

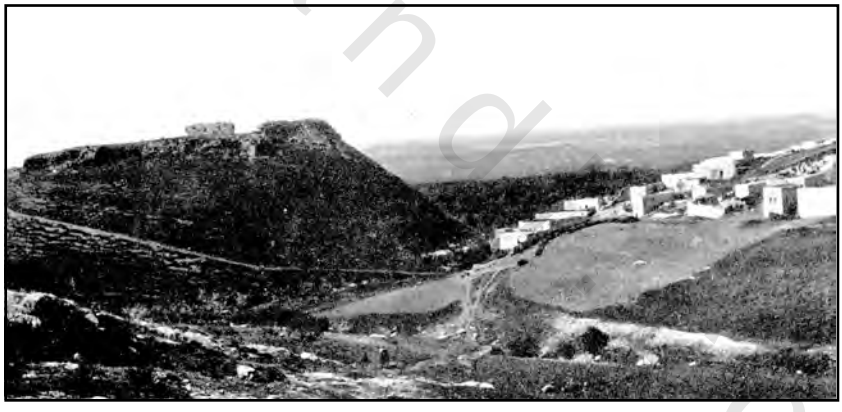

١٤٧ ـ سلقين

وجرَّدتُها من غطائها الحريري والمراس المصنوع من وبر الجمال ووضعتها بشكلها العادي الرزي فوق جدائل شعر ابنتها الأسود.

وأعلنتْ أنها أجمل غطاء للرأس في العالم.

في الساعة السادسة مساء وصلت أخبار تقول إن حيوانات المتاع قد وصلت، ولكن قبل أن يسمح لي بالعودة إلى مخيمي كان عليّ أن أزور رستم آغا، كان مستلقياً فوق فراش كوَّم فوقه أغطية حريرية محشوة بالصوف في غرفة علوية تطل على جدول سريع جميل، والسروتان الكبيرتان القديمتان اللتان تضيفان منظراً رائعاً إلى سلقين، وهما تقفان كحارسين أسودين طويلين أمام بوابة المنزل الذي يعد الأول والأكبر في شارع البلدة الملتوي.

كان رستم آغا مسناً جداً ومريضاً جداً، كان وجهه شاحباً يشبه وجه جيفة فوق الأغطية الحريرية الصفراء الباهتة، وبدا وكأنه مسرور من زيارتي، على أنه عندما فتح شفتيه لتحيتي اجتاحته نوبة سعال شديدة إلى درجة شعرتُ وكأن روحه تريد أن تخرج من جسده، وما أن هدأ سعاله حتى سألني عن آخر أنباء الحرب الروسية اليابانية.

وقد عجبتُ بأن شخصاً مثله يقف على حافة قبره لديه الأناة للاهتمام بأي شيء يتعلق بنا، وسواء استطعنا أن نرى الكانز المتكئ يعرج بمنجله بين شجرتي السرو أمام الباب أم لم نستطع[1] .

بينما كنت جالسة أتناول طعام العشاء في خيمتي جاء خادمان من عند محمد علي ودخلا وهما يتهاديان إلى خيمتي يحملان جرة كبيرة من زيتون سلقين تم حفظه بزيت من نتاجها.

كما أنهما قدما سؤالاً من سيدهما يسأل فيما إذا كان يستطيع أن يأتي ليقضي ساعة معي، فأرسلتُ من جهتي رسالة جوابية أقول فيها: إن هذا مما يشرفني. وظهر بعد قليل مع مرافق أو مرافقين من أجل حمل نرجيلته، وجلس

(١) لعل هذا مثل إنكليزي يضرب لمن يهتم بأمور بعيدة جداً عن تناوله. (المترجم)

موطِّنا نفسه على محادثة مريحة وسط قرقرة الماء في زجاجة النرجيلة. (صوت مهدئ ومحبب يتخلل الحديث). وقد أخبرني أن سلقين كانت واحدة من المدن السلوقية وأن بانيها هو سليقوس الأول، وتعد كمَصْيَف في الصيف لأهل إنطاكية، وأن البقعة التي أخيم فيها، والبساتين المحيطة بها هي موقع المدينة السلوقية، «وكلما أردنا أن نحفر قبراً نخرج أحجاراً منقوشة وأحياناً مكتوبة».

«يبدو ليس من غير الطبيعي أن يتخذ سكان إنطاكية من هذا السهل الخصيب منتجعاً ومقراً لمنازل الضواحي، ولكنني لم أعثر على أي دليل يؤكد هذا القول». وقال أيضاً: إن نسيبه رشيد آغا يقيم عنده، وقد عبّر عن أمله أن أزوره في الغد قبل أن أسافر.

إذا كان رشيد آغا هو القطب الرئيسي في الناحية فهو أيضاً الشرير الرئيسي فيها. وجدته في الصباح الباكر جالساً تحت السروتين بجانب الجدول المزبد، أكثر الوجوه تعبيراً عن اللؤم في أحلى جلسة تحت أجمل شمس في وضع ليس من السهل تصوره، كان طويل القامة، متغطرس

١٤٨ ـ سلقين

السلوك وتخفي جبهته الضيقة عالماً من الأفكار الشريرة، ونظراته شزراء مفزعة، وتغمغم شفتاه المكتنزتان الشهوانيتان متحدثة عن المفاخر العبثية مع مزيج الأوامر التي تشكل قوام حديثه. كان قد لف نفسه بثوب حريري باهت اللون وجلس يدخن النرجيلة بنربيج قد حلي فمه بالمجوهرات. وإلى جانبه باقة من أزهار الربيع كان يشمها ما بين فترة وأخرى أثناء الحديث ثم قدم أفضلها إلى شخصي الكريم. وهو واحد من امتيازات الرحالة غير المسؤولة حيث لا يستطيع أن يتجنب أو يتحاشى زيارة مجموعة من الأوغاد.

وعندما وجدت أن صديقي محمد علي سوف يرافق رشيد آغا إلى بيت الأخير في قرية العينة، وأن هذه تقع على طريقي وافقت على اقتراحهم بأننا يمكن أن ننطلق سوية، وأخرجت الخيول وركبنا تحت شجرتي السرو وهدبنا عبر كروم الزيتون باتجاه وادي العاصي.

كان رشيد آغا يركب فرساً عربياً رائعاً، كان جلده يلمع نتيجة للتنظيف الذي تلقاه. وقد لجم على نحو لطيف، كانت رشمته من الفضة ولجامه مرصع بزخارف فضية، وكل حركة من حركاته متعة للناظرين، وكان صاحبه يناشد على نحو متكرر محمد علي الذي كان يعدو على بغلته الجميلة على نحو خفيف مشاركته الإعجاب بفرسه.

وكان محمد علي يلقي بخنوع كلمات الإعجاب المطلوبة، وكانت كلماته يؤمن عليها من قبل رجل بدين عجوز كان يركب معنا حصاناً صغيراً هزيلاً. كان المهرج المتملق الذي يعمل في خدمة رشيد آغا، قواداً ومتستراً على رذائله وجرائمه، لقد وقعت بين هذه المرافقة الغريبة في ذلك الصباح من نيسان، وقد هدب الحاج نجيب فرسه بحيث يكون على بعد كاف خلفنا، أما ميخائيل الذي كان إحساسه بالمسؤولية والخصوصية أكبر فلم يستطع أن يخفي عدم استحسانه وكان يجاوب بكلمة واحدة عندما كان يخاطبه القواد أو رشيد آغا،

مع أنه كان يتحدث باسترخاء مع محمد علي الذي كان يعتبره من طينة أخرى (بحق). وسرنا حوالي ساعة في أرض ربيعية ناعمة وكان رشيد يشير إلى جَمال ممتلكاته بينما كنا نسير.

قال: «كل كروم الزيتون هذه ملكي، بالله وبمحمد رسول الله لا يوجد مثل هذا الزيتون على سطح الأرض، في كل سنة آتي من حلب لأشرف على جني محصولي لئلا يسرقه الفلاحون الأنذال الذين يعملون عندي لعنهم الله. ولذلك فقد بنيت لنفسي منزلاً في العينة ـ يعلم الله، إن الإنسان يجب أن يؤمن لنفسه حياة لائقة ومريحة. ولكن يجب أن تشاهدي البيت، يجب أن تأكلي زادي فمائدتي مفتوحة دائماً للزائرين، وقد زرعت حول المنزل حقولاً من شجر التوت، عشرة آلاف شجرة فتية، زرعتها في السنين الخمس الماضية. سوف أقيم مصنعاً لإنتاج الحرير بكميات كبيرة بعون الله. يا يوسف أري السيدة علب بيض دود القز التي أتينا بها من فرنسا».

١٤٩ ـ رحالة

وأخرج المهرج علبة صغيرة من صدره ممهورة بخاتم المربي الفرنسي، ولكن قبل أن أتمكن من إظهار احترامي لصناعة الآغا استرعى انتباهه بعض الفلاحين الذين كانوا يقلّمون أشجار الزيتون على نمط رآه غير مناسب، فنخس فرسه باتجاههم ممطراً بنفس الوقت وابلاً من التجديف واللعنات على الفلاحين المساكين، ثم عاد بعد ذلك ليستأنف حديثه عن قوته إلى جانبي.

كان المنزل كبيراً وجديداً، مفروشاً كله بالسجاد الطويل التيلة المترف، والمرايا ذوات الأطر الذهبية، ولم يكن يسر الآغا مثل إظهار إعجابي بكل زاوية من زوايا المنزل، وقد قدم لي المهرج القدوة في اختيار تعابير الحمد والتهاني. وقد استنتجت من جهتي أنني دعيت بشكل رئيسي من قبله من أجل التحقق من جمال ومزايا المدافىء الحديدية التي كانت بارزة في كل غرفة من أجل إضافة بهاء للبناء وراحة لقاطنيه.

وبعد أن انتهينا من التجوال في أرجاء المنزل جلسنا في إحدى الغرف على أريكة بانتظار الغداء، وفي أثناء ذلك أخذ يحدثني بسخط شديد عن نضاله ضد استبداد وفساد موظفي الحكومة التي يعيش في ظلها، ولكنه لم يذكر أن ما يعاني منه من أولئك الفاسدين فوقه يعاني منه الفقراء المساكين الذين يعيشون تحت إمرته.

دمدم: «بالله، لقد رأيتِ عملي في كروم زيتوني، ورأيتِ لِمَ غرستُ شجر التوت، وكيف جلبتُ بيوض دود القز من أقاصي الأرض من أجل أن أقيم تجارة جديدة في العينة، هل قال الوالي شكراً؟ لا.. والنبي.. لقد أرسل رجاله قالوا: توقف حتى نعرف مقدار الضريبة التي سوف نفرضها عليك، وعندما قررتُ أن أبني طاحونة على النهر من أجل طحن قمحي، قالوا: توقف إنه غير

قانوني، ثم استدعوني في وسط جني الموسم، فركبت سريعاً إلى حلب، وجعلوني أنتظر يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع ومنعوني من مغادرة المدينة.. وبالله!!!.. صرخ الآغا ضارباً بقبضة يده على طاولة صغيرة مرصعة أمامه، (أربكتهم) ذهبتُ إلى القاضي وقلت: من أصدر الأمر؟. قال: الوالي.. ثم ذهبتُ إلى الوالي وقلت: من أي جهة صدر الأمر!.. فأجاب: لا أعرف، ربما من القاضي!. فطلبتُ منهم كتابة ذلك خطياً، ولكنهم لم يجرؤوا، وهكذا تركوني أمضي».

في وسط هذه الحكايا أعلن عن وصول ثلاثة زائرين. وجلسوا في مكان محترم على الأريكة المقابلة مسوقين أنفسهم بالتحيات وملحقاتها، واستقبلهم الآغا كما يستقبل الإمبراطور رعاياه، واستغل أحدهم الفرصة وقال هامساً بصوت مسموع من الجميع.

«أنت ترين أي رجل هو الآغا؟ هو أشبه بملك في هذه المنطقة» وأصبح الآغا أكثر زهواً وابتهاجاً.

وجلسنا أخيراً إلى مائدة مفعمة بأطايب أشهى المآكل السورية اللذيذة. ونادرة المطابخ التي تستطيع أن تنافس المطبخ السوري. وأكل الآغا وتحدث بنفس الشهية مقدّماً بإلحاح طبقاً إثر آخر لضيوفه. وعندما كانت الوليمة في أوجها قدم خادم وقال إن ثمة فلاحاً يريد أن يقابله.

قال الآغا على نحو غير مبال: «دعه يدخل».

وظهر الفلاح يرتدي أثمالاً في الباب بعينين نصف حزينتين، نصف خائفتين من الجماعة ومن وفرة الأطعمة اللذيذة.

«السلام عليكم يا آغا».. بدأ حديثه.

وما أن شاهد الآغا الفلاح المسكين المتضرع حتى نهض على قدميه غاضباً جداً وأحمر وجهه وبدا وكأن عينيه سوف تخرج من محجريهما من الغضب وضرب بقبضة يده المطبقة على المنضدة وصرخ..

«انقلع، الله يلعنك ويلعن سلالتك، ويخرب بيت أبوك.. أقول لك انقلع واجلب المال، أو سوف أرسلك إلى السجن أنت وزوجتك وعائلتك، وسوف تبقى هناك حتى تموت».

قال الرجل بإجلال في مواجهة الآغا الغاضب «يا آغا قليلاً من الوقت، أعطني قليلاً من الوقت».

قال الآغا: «ولا يوم، ولا ساعة! انقلع.. روح اليوم،هذه الليلة يجب أن تأتيني بالنقود».

واختفى الفلاح من الباب بدون أي كلمة.. وجلس الآغا على مقعده واستأنف حديثه الذي كان قد قطعه وطعامه، وأكل بقية الضيوف وكأن شيئاً لم يكن، أما أنا فشعرتُ قليلاً بالخجل؛ بسبب وجودي إلى جانب رشيد آغا، ولم أشعر بالأسف عندما طلبتُ منه السماح لي بالرحيل.

وأرسلَنا الآغا إلى شط النهر وهناك أركبَنا بقاربه من أجل عبور العاصي، وعندما وصلنا إلى الضفة الأخرى أخرج ميخائيل على نحو ملفت للنظر كسرة من الخبز من حقيبته وأخذ يأكلها.

قلت: «أنت لم تأكل عند الآغا؟».

أجاب ميخائيل على نحو قاس: «أنا لا آكل عند شخص مثله».

١٥٠ ـ إنطاكية

عند ذلك قال نجيب ـ الأقل مشاكسة من ميخائيل، والذي لم يكن موسوساً ليكبح نفسه عن وليمة مترفة ـ على نحو غير مألوف هازاً رأسه:

«الآغا رجل شرير، الله يجازيه على أعماله، إنه يعتصر الفقراء العاملين عنده حتى آخر متليك، ويطردهم من منازلهم ليتضورا جوعاً».

قال ميخائيل بتجهم: «وأسوأ من ذلك».

قال نجيب: «بالله، كل رجل عنده زوجة أو ابنة جميلة يظل في خوف وقلق منه، لأنه لا يستريح حتى تصبح المرأة في أحضانه، بالله وبمحمد رسول الله لقد قتل أكثر من رجل من أجل الاستيلاء على حرمته، وما من أحد مكروه مثله».

قلت: «ألا يناله القانون»؟.

قال نجيب: «من سيعاقبه؟ إنه غني، الله يخرب بيته».

قلت أنا ونحن نتلمس طريقنا بين الحقول الموحلة: «آه.. يا ميخائيل لقد

تجولتُ كثيراً في بلادكم، وتعرفت على العديد من الناس، ولم أتعرف على فقير إلا ووجدت أنني أستطيع أن أختاره كصديق، ولم أتعرف على غني دون أن يلازمني شعور الرغبة بتجنبه.. والآن كيف يحدث هذا؟ هل تفسد الثروة قلوب الناس في سوريا؟. لاحظ.. في بلادي ليس كل الأغنياء طيبين، ولكنهم ليسوا جميعاً أشراراً، وأريد أن أسألك هل ستصبح أنت ودروز قلب لوزة وموسى الكردي أشراراً مثل رشيد آغا إذا أصبحتم أغنياء؟

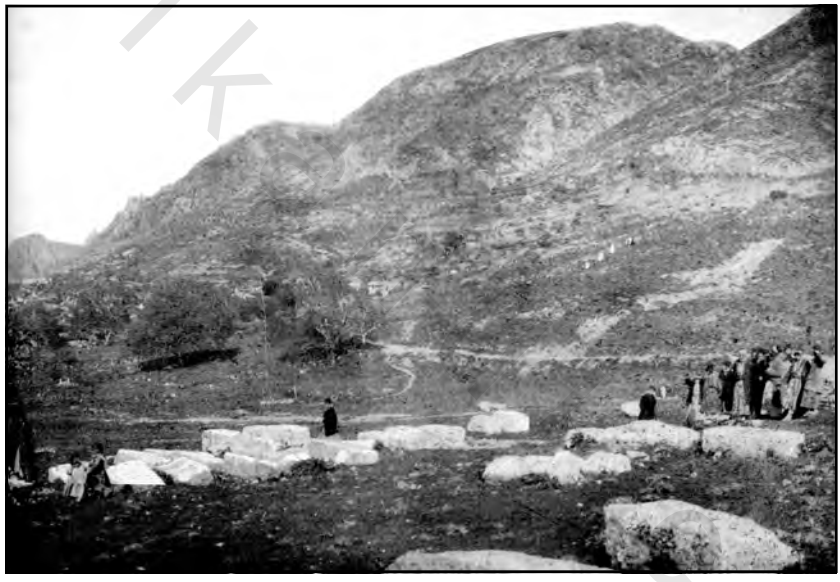

١٥٠ ـ إنطاكية

قال ميخائيل: «آه.. يا سيدتي قلوب الناس متشابهة؟! في بلادكم الحكومة عادلة وقوية، وكل إنكليزي يجب أن يمتثل للقانون حتى الأغنياء، بينما لا يوجد عدالة في بلادنا.. الكبير يأكل الصغير، والصغير يأكل الأصغر، والحكومة تأكل الجميع، وجميعنا نعاني من بعضنا وندعو الله أن يساعدنا، ولكن أنا لم آكل من خبز رشيد آغا على الأقل».

لخص ميخائيل مجمل كلامه، وعند هذه النقطة لوينا رأسينا أنا ونجيب، ثم تبع ذلك خمس ساعات من أسوأ مراحل السفر.

وقد تكون عقوبة لي ولنجيب لأكلِنا على مائدة رجل شرير، ولكن معظم العقوبات الإلهية لا تقع على رأس المسيء فحسب، وإنما تطال غير المذنب أيضاً، إذ عانى ميخائيل مثل ما عانينا، ومثلما عانينا قبل يومين من الصخور عانينا اليوم من الوحل، فالعذاب كان أقسى بألف مرة، لخمس ساعات عبرنا تلالاً من التراب ليس فيها حجرة واحدة، إنما وحل كثيف على المنحدرات، فإذا هبطنا منها نزلنا إلى أراض سبخية عميقة حيث كانت خيولنا تغوص حتى الحزام، وعندما خرجنا من هذا المستنقع في وادي العاصي كان الإنسان والخيل قد استُنزِفوا نهائياً.

وتابعنا المسير، ولكن الأرض المرتفعة التي تركناها قد ارتفعت الآن فأصبحت حوافاً صخرية وقمماً مسننة. كان الوادي العريض يقع على يميننا الآن وهو طاف بالماء، وإلى الخلف منه تقع سلسلة الجبال الرائعة، ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا الأبراج والأسوار البيزنطية تتوج السلسلة الجبلية إلى يسارنا.

وسارت خيولنا متعثرة بين فسحات مزهرة على طول الرصيف الروماني المخرب الذي يؤدي إلى إنطاكية، وكان الطريق يتقطع كثيراً بروافد نهر العاصي التي كانت تجري بجزل فوق الرصيف.

وقد كان من المثير بعض الشيء أن تتملى عيناي بإنطاكية التي كانت ولعدة قرون مهداً للفن، وموقعاً من أهم المواقع المدنية الرائعة التي عرفها العالم، تشبه إنطاكية الحديثة سروالاً واسعاً جداً على ساقين هزيلين، فجدران القلعة التي تتسلق الصخر، والهضبة تحيط بمسافة واسعة من الأرض بينما تقع البلدة المنكمشة بعيدة عنها.

ولكنها مازالت من أجمل بقع الأرض بهضابها العظيمة المسننة خلفها، متوجة بالأسوار، وسقوفها الحمراء المتعنقدة تمتد إلى الأسفل حتى وادي العاصي الخصيب، وقد قلبت الزلازل مع فيضانات النهر المتغيرة وطمرت بالطمي القصور الإغريقية والمدينة الرومانية، وعرفتُ وأنا أقف عند غروب الشمس

١٥١ ـ إنطاكية، على شاطئ نهر العاصي

على منحدر المقبرة النصيرية المغطاة بالأعشاب تحت تلة سيلبيوس حيث كان قد نصب مخيمي ورأيتُ الأسقف الحمراء تحت هلال القمر، وعرفت أن ذلك الجمال هو جمال إنطاكية الخالد.